شقيقات الأَزهر

الأستاذ/ مُحَمَّد حسن

من أقدم وأشهر الجامعات الإسلامية في العالم، جامعتا القيروان والزيتونة في تونس وجامع القرويين في المغرب، وجامعة عليكرة في الهند، وكلها شقيقات للأزهر، وإن اختلفت الأعمار.

لم يقصر الإسلام رسالة المسجد على الصلاة، بل جعله مقام ذكر، وموطن تلاوة، ومعهد علم وثقافة. وأول مسجد في العالم بناه النبي مُحَمَّد (ﷺ)، يوم هاجر إلى المدينة، وكان مخصصًا للفريضة، ومدرسة يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنياهم، واقتدى الخلف بالسلف، فبعد الصلاة في المسجد تعقد الحلقات لدراسة علوم الدين والدنيا، وتدرس اللغة والنحو والصرف والأدب وسائر العلوم.

وفضل علوم الإسلام والعرب على العالم لا ينكر، وحلقات الدرس في المساجد هي النظام الجامعي الحق؛ لأنه يجمع بين الأستاذ وطلابه في جو من البساطة. وهكذا فإن الجامع الإسلامي، جامعة بأحدث ما تحمله الكلمة من معنى!

أقدم جامعة:

دخل العرب تونس سنة ٦٧٠ ميلادية، وأنشؤوا مدينة القيروان، وفي السنة التالية (أي بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بنحو ٣٨ سنة) بنى

القائد العربي عقبة بن نافع مسجده الجامع هناك؛ ليؤمه طلاب العلم من المشرق والمغرب. وقد أنشئ بالقيروان معهد لدراسة الطب والرياضة والصيدلة، وأطلق على المعهد اسم (بيت الحكمة)، وقام أساتذته بنشر العلوم في حوض البحر الأبيض وأوروبا، وأصبحت مدينة القيروان هي عاصمة المسلمين في أفريقيا.

وفي العصر العثماني لم يكن يسمح لغير المسلمين بدخول القيروان، مدينة الأربعمئة مسجد بمآذنها وقبابها، غير أن المسجد الجامع هدم وأعيد بناؤه خمس مرات، حيث تبادل البربر والرومان الإغارة على تونس، والبناء الحالي يرجع إلى عهد الأغالبة في القرن الثالث الهجري.

وفي سنة ٧٢ ميلادية، إثر فتوحات عبد الله بن الحبحاب وعبد الرحمن الغافقي، بنى الحبحاب جامع الزيتونة من الرخام المجلوب من أنقاض مدينة قرطاجنة المشهورة، غير أن تونس كانت في ذلك الوقت لا تزال عرضة للغزو الخارجي، بعد أن فقدت أسطولها الضخم الذي كان يسيطر على شواطئ غربي البحر الأبيض؛ لذلك كانت تحيط بالجامع أربع قلاع هي في الواقع أحد الحصون الألف المنيعة المنتشرة على ساحل البحر الأبيض من طنجة إلى الإسكندرية.

ولقد ظل جامع الزيتونة حصنًا، على منبره تلقى خطب الجهاد الوطني، من عهد عبد الله بن الحبحاب إلى عهد الحركة الوطنية، ومنه تخرج المظاهرات الوطنية ضد قوات الاحتلال.

يقول الدكتور صلاح العقاد في كتابه (المغرب العربي: دراسات تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة): إن مصادر الحركة القومية التونسية ترد في

الغالب إلى أصول إسلامية بحتة، وتتمثل في المراكز الإسلامية العريقة في تونس، وعلى رأسها جامع الزيتونة. وأحد أبناء هذه المدرسة الدينية، وهو الشيخ مُحَمَّد السنوسي، كان أول من قدم عريضة مطالبًا بالدستور، كما تخرج في هذه الجامعة الشيخ المكي بن عزوز، الذي كان له الفضل في تخريج الجيل الأول من المناضلين التونسيين، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز التعالبي، وكان ابن عزوز يسير على نهج سلفه الوزير خير الدين، الذي كان له الفضل في نشأة طبقة المجددين، حين أسس مدرسة الصادقية سنة ١٨٧٥، لتدريس العلوم الحديثة في إطار عربي إسلامي، وفي هذه المدرسة تخرج رواد الحركة الوطنية من أمثال بشير صفر، وعلي باش حمية، ولقد كان مثقفو الزيتونة هم الذين أنشؤوا حزب التقدم، الذي تطور بعد ذلك إلى حزب تونس الفتاة – على غرار حزب تركيا الفتاة – ثم حزب الدستور، فالحزب الدستوري الجديد، الذي رأسه الحبيب بورقيبة، وحين زار الرحالة المصري مُحَمَّد ثابت جامع الزيتونة في الأربعينات، قال: "رأيت الطلبة منكبين على المطالعة والدرس في أركان المسجد، فهو منهل للعلوم الإسلامية على طريقة الأزهر عندنا، ويتلقى فيه العلم زهاء ٣٠٠ طالب، وللغرباء فروع (أروقة) يأوون إليها، ويخصص لكل طالب أو اثنين غرفة، ويزيد عدد تلك الفروع على العشرين. وتلحق بالمسجد مكتبة قيمة حوت اثني عشر ألف مجلد. وللتونسيين اهتمام بمعاونة المنشآت العلمية، يوقفون عليها كثيرًا من أموالهم في سخاء كبير".

ولفهم التطور العلمي لجامعة الزيتونة، لا بد من إلمامة سريعة بالمذاهب الدينية في تونس:

جلب جند الشام المذهب الأوزاعي إلى تونس والمغرب والأندلس، وبعد وفاة الأوزاعي صارت تونس على المذهب المالكي الذي انتشر من القيروان إلى بقية المغرب، والصحراء والأندلس وفي فترة تالية ساد المذهب الحنفي، وكان أسد بن الفرات (فاتح صقلية) يدرس هذا المذهب بجامع القيروان، ولكن الشعب كان مالكيًا، وكان سحنون يدرس المذهب المالكي في جامع القيروان. أما البربر الضاربون في الجبال والصحاري، فمعظمهم على مذهب عبد الله بن الإباض.

ومع أن المذاهب ظهرت في تونس العاصمة مبكرة، فإن التعليم ظهر في القيروان مسبقًا، ولم ينتقل إلى جامع الزيتونة إلا في عهد دولة الموحدين. وكان التونسيون والصقليون المهاجرون وأشهرهم آل صقلي في الطب، والأندلسيون وأشهرهم ابن عصفور وابن القصار في النحو، والقلعاوي والأبلي والوادياشي في العلوم، هم الذين يقومون بالتدريس. وبعد سقوط إشبيلية جاء ابن خلدون، وابن سعيد، وابن أبي الحسن، والمالقي، وابن الآبار، وغيرهم.

واستعان الموحدون في التعليم بجامع الزيتونة أيضًا ببعض الليبيين، مثل أبي البركات عبد الحميد بن أبي الدنيا، وكانت العلوم الرياضية والطبيعة والفلك والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافيا تدرس في جامعة الزيتونة، بالإضافة إلى علوم اللغة والدين. وقد ذكر العالم الشيخ مُحَمَّد مخلوف في كتابه (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) طبقات الأساتذة والأئمة والعلماء الذين تخرجوا في الزيتونة ثم درسوا بها، ومن بين هؤلاء ابن خلدون، وابن عرفة، وابن راشد القفصي وماغوش وغيرهم.

وتحوي جامعة الزيتونة مكتبة ضخمة، أسسها أبو زكريا، مؤسس الدولة الحفصية، وأضاف إليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الأمراء المراديين والحسينيين، وكانت المكتبة عند تأسيسها تحوي نحو ٤٠ ألف مخطوط، بقي منها اليوم ٢٥ ألفًا، منها الفريد والنادر والنفيس، ومن أقدم المخطوطات تفسير ابن سلام القيرواني، وهو مكتوب على رق الغزال بالخط الكوفي الجميل، ويعتبر من أقدم التفاسير إن لم يكن أقدمها. وفي المكتبة كتب في السياسة والحرب والطب والتاريخ واللغة والفقه والحديث، ولها نظام للإعارة المحلية والخارجية.

وطراز جامعة الزيتونة يكاد يكون شاملًا للأنماط المعمارية الإسلامية، فيه الفن المغربي من أفريقي وأندلسي ومراكشي، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتركي. والجامع الأول الذي بناه الحبحاب يجمع بين الفنون البيزنطية والإيرانية والعربية، القلعة بيزنطية، والصومعة المستديرة إيرانية، والنمط العام عربي يشبه جامع الكوفة. ومنبر الجامع يعتبر تحفة من الفن الإسلامي، صنع سنة ٢٤٩ هجرية على نمط منبر القيروان، وهو في مقصورة إلى يمين المحراب، يخرج منها على سكة حين استعماله ثم يعاد بعد ذلك إلى مكانه.

وحول جامعة الزيتونة، أسواق بديعة تتعلق بمهام الجامعة: سوق الكتبيين – باعة الكتب – وسوق السفارين – المجلدين – وسوق الشهود العدول – المأذونين – الذين يستحضرون إلى داخل الجامع لكتابة العقود التي تبرم بعد أداء الفرائض للبيع والشراء والإيجار والزواج. وسوق الفضة التي تصنع فيها المباخر والمجامر و(المرشات)، والمراوح التي يتقى بها

المجتمعون داخل المسجد حر الصيف. هذا فضلًا عن سوق العطارين، وسوق الطيبيين وهم باعة العطور والبخور. تمامًا مثل أسواق العطارين والصاغة والغورية وغيرها، التي تحيط بالجامع الأزهر في القاهرة.

مهاجرو القيروان بنوا جامعة القرويين:

فى القرن الثامن الميلادي هاجر أكثر من ثلاثة آلاف من أهالي القيروان؛ هربًا من فظائع الرومان والبربر في بلادهم، وبالقرب من مدينة فاس استوطنوا (عدوة القيروانيين)، التي بسطت فيما بعد إلى (عدوة القرويين). من هؤلاء المهاجرين كانت السيدة فاطمة بنت مُحَمَّد بن عبد الله الفهري القيرواني، وحين توفي والدها ترك لها ثروة طائلة، أنفقتها كلها في بناء جامع القرويين سنة ٨٠٢، على نمط جامع القيروان في بلادها، وتحول الجامع بعد ذلك إلى جامعة للدراسات الإسلامية، وقد ظلت فاطمة الفهرية صائمة، محتسبة إلى الله، حتى تم بناء المسجد، فصلت فيه شكرًا، وفي نفس الوقت قامت أختها مريم بعمل مماثل في جامع الأندلس.

ولم يبقَ جامع القرويين على حاله، فقد زاد فيه أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل عبد الرحمن الناصر، فبنى الصومعة الموجودة الآن وأزال القديمة سنة ٣٤٥ هجرية، ومن بعده زاد المنصور بن أبي عامر الحاجب فيه، ثم وسعه علي بن يوسف اللمتوني من دولة المرابطين. وفعل مثله ملوك دولة الموحدين وبنو مرين، فقد أنشأ السلطان أبو عنان فارس المريني حول القرويين عدة مدارس، وأسس مكتبة، وقام يوسف بن تاشفين بتأسيس مدرسة الصابرين، وبنى السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الخالق مدرسة العطارين، وشيد أبو عنان مدرسة البوعنانية. وكل هذه المدارس تابعة

لجامعة القرويين.

وفي رحاب هذه الجامعة بدأت الدراسات الأولية في اللغة العربية والدين والشريعة، وذاع صيتها، فتوافد عليها العلماء من كل قطر، وفي فاس اليوم لا تزال عائلات كثيرة تحمل أسماء تنتسب إلى البلاد التي جاءت منها مثل عائلات التونسي والجزائري والمصري والعراقي واليمني. وكان من أثر نجاح الجامعة أن أصبحت منارة العلم في العالم الإسلامي، واشتهرت مدينة فاس حتى أصبح المثل يقول: "يكاد العلم ينفجر من حيطان فاس".

ولقد سطرت هذه الجامعة العريقة صفحات مشرقة في تاريخ القرويين، فمنها انبعثت الانطلاقة الأولى سنة ١٩٣٠ لمقاومة (الظهير البربري)، الذي أراد به المستعمر فصل البربر عن مسلمي المغرب. ومنها خرجت الحركات الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، وكان خريجوها هم رواد الوطنية في المغرب. ولقد اهتم علماء القرويين بكل العلوم والفنون، كانوا يخصصون مجالسهم داخل المسجد للعلوم الإسلامية وعلوم اللغة، ويخصصون المدارس المحيطة بالجامع للرياضيات والطب والتاريخ والموسيقى، وبعض العلوم كانوا يدرسونها في بيوتهم كعادة بعض جامعات أوروبا الآن مثل جامعة (ليدن) في هولندا.

وقد ظلت هذه الجامعة منارة العلم التي تحدث الأحداث السياسية التي مرت بها، خصوصًا ضغط الاستعمار الفرنسي لطمس معالم العروبة والدين في المغرب، وبقيت كعبة طالبي العلم في الشرق والغرب، وجاءها (سلفستر) الثاني طالبًا العلم، ومنها نقل الأعداد العربية إلى أوروبا. وفي عام ١٩٣١ عين الملك مُحَمَّد الخامس مجلسًا أعلى للأشراف على

جامعة القرويين، فقام بتطوير برامجها لتلائم روح العصر الحديث، فقسمت الدراسة فيها إلى ثلاثة أقسام يمنح الطالب في نهايتها شهادة العالمية، وفي عام ١٩٥٧ أدخلت العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة الإسلامية واللغات الأجنبية.

ويسمى نظامها الآن (التعليم الأصلي). ولعل أهم ما في هذا التغيير هو تعريب الدراسة كلها، مما جعل جامعة القرويين تحتفظ بمكانتها القديمة كمصدر لإشعاع الروح الإسلامية العربية.

وللقرويين دور فعال في تعليم المرأة، حيث كانت في البداية تتلقى علوم القرويين وهي في دارها، وتحضر بعض المحافل التي يعقد فيها الفقهاء مجالسهم، واستمر اتصال القرويين بالوسط النسوي حتى عصر النهضة الحديثة، حين نادى الملك مُحَمَّد الخامس من فوق منبر القرويين بوجوب تعليم الفتاة كالفتى تمامًا، فقال: "لا رقي لشعب نصفه أشل"، ففتحت الجامعة أبوابها للنساء، وفي عام ١٩٤٧ فتحت الجامعة معهدًا للفتيات.

وكانت الجامعة في بداية عهدها تعتمد على كتب الفقهاء الخاصة، كان الطلبة ينسخون منها دروسهم، ثم أنشأ السلطان أبو عنان فارس المريني مكتبة القرويين، وأودعها كثيرًا من الكتب تحتوي على (علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان).

ولقد نمت هذه المكتبة حتى أصبحت من أضخم المكتبات، فهي تضم أكثر من ١٠ آلاف مخطوط في جميع أنواع المعرفة، ففيها كتب في الرياضة والطب والفلك، والهندسة وعلم الجبر والحساب، وعلوم الفلسفة واللغة، ومن هذه المخطوطات ما كتبه أصحابها بخط يدهم ككتاب

(الأوقات) لمحمد بن كرمرت، الذي اختصر كتاب الموطأ، وكتاب (الطهارة) وهو مكتوب على رق الغزال، وكتاب (العبر) لابن خلدون مذيل بتوقيعه، وكتاب (سير ابن اسحاق) في القرن الخامس الهجري، وهي نسخة فريدة في العالم، وكتاب (الرجم والحدود) لعلي يوسف بن تاشفين، ومنظومة (الطب) لأبي بكر بن الطفيل، هذا فضلًا عن كتاب (سير إبراهيم بن الفزاري) على رق الغزال، وهو من أقدم مخطوطات المكتبة، ومخطوطة مرسومة بالبيان والتحصيل في الفقه المالكي للفقيه ابن رشد، قيل إنه استخدم في كتابته ٣٦٠ غزالًا!

وبالمغرب جامعة دينية أخرى هي (جامعة ابن يوسف) بمدينة مراكش، تضم عدة آلاف من الطلبة والطالبات، وقد طورت مناهجها بعد الاستقلال لتقبل المرأة، فضلًا عن تعليم اللغات الأجنبية وباقي العلوم الحديثة.

من جامعة عليكرة تخرج علماء الشرق الأقصى:

دخل الإسلام الهند في القرن الثامن الميلادي على يد الفاتح العربي مُحَمَّد بن القاسم، في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وفي القرن الثالث عشر قامت دولة المماليك على يد السلطان قطب الدين أيبك، وفي مستهل القرن السادس عشر قامت الدولة المغولية على يد ظهير الدين بابر، وفي بداية القرن الثامن عشر بدأت الامبراطورية المغولية تضمحل وتتفكك، فبدأ الاستعمار البريطاني يدخل الهند على يد (شركة الهند الشرقية)، وفي منتصف القرن التاسع عشر ثار الهنود على الشركة، فتم قمع الثورة، وحكم الاستعمار البريطاني بشكل سافر، وقاطع

السملمون المستعمر تمامًا حتى أصابهم التلف والجهل.

وبعد أن دالت دولة المسلمين في الهند، هو السيد أحمد خان، وأدرك الشيخ أن المقاطعة والسلبية لن تؤدي بالمسلمين إلا إلى مزيد من التلف، فنادى بتعليم المسلمين حتى يمكنهم أن يلحقوا بمجدهم القديم. وفي عام ١٨٧٧ أنشأ كلية إسلامية في عليكرة تدرس العلوم الإسلامية بالإضافة إلى العلوم الحديثة. وتوفي السيد أحمد خان عام ١٨٩٩، ولكنه خلف رجالًا مثل هالي، وغفر الملك، وشبلي ومحسن الملك، حملوا رسالته.

بعض هؤلاء الرجال مع آخرين أسسوا (المؤتمر الإسلامي) في مطلع القرن العشرين، وفي عام ١٩١٣ أصبح القائد الأعظم مُحَمَّد علي جناح عضوًا في المؤتمر الإسلامي، وفي عام ١٩٣٠ عقد المؤتمر الإسلامي في مدينة الله آباد برئاسة الشاعر مُحَمَّد إقبال، وفي هذا المؤتمر نادى إقبال بدولة للمسلمين، وقام القائد الأعظم مُحَمَّد علي جناح بالجهاد في سبيل الفكرة حتى ولدت جمهورية باكستان الإسلامية.

غير أن جامعة عليكرة الإسلامية بقيت في مقاطعة أوتار براديش بالهند، وذاع صيتها في جميع أنحاء العالم، بفضل اثنين من أبرز أساتذتها، هما البريطاني سير والتر رايلي، والعلامة شبلي النعماني، المؤرخ الهندي ومؤسس ندوة العلماء بمدينة لكناو، والذي كان له الفضل في رفعها إلى درجة جامعة، بعد نداء للاكتتاب تبناه زعيم طائفة الإسماعيلية الراحل أغاخان، وتم جمع أكثر من ٣٠ مليون روبية لهذا الغرض.

وفي سنة ١٩٢٠ تحولت الكلية الصغيرة إلى ما هو معروف الآن باسم (الجامعة الإسلامية بعليكرة)، أقدم الجامعات التي أسستها الأمة الإسلامية

في الهند، وأكثرها صيتا وشهرة، فقد أسهمت هذه الجامعة في تثقيف الشباب المسلم وصوغه في قالب جديد، ومعظم زعماء المسلمين في ماضي الهند القريب، وأغلب العلماء الذين برزوا في مختلف العلوم العصرية ونالوا شهرة دولية إما من خريجي هذه الجامعة، وإما ممن كانت لهم علاقة بها.

وقد أقيمت الجامعة على نمط جامعتي أكسفورد وكمبردج البريطانيتين، مع تعديل بسيط لتلائم الظروف والأوضاع الهندية. وفي عام ١٩٢٥ احتفلت الجامعة بمرور نصف قرن على إنشائها، ودعي المسلمون إلى اكتتاب جديد لإقامة كلية للهندسة، وأقسام للطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات، بالإضافة إلى تعزيز قسم الجغرافيا. وفي عام ١٩٤٤ أعيد تنظيم أقسام الجامعة بحيث تمارس مختلف الكليات نشاطها برئاسة مستقلة، ولتشجيع العلاج أنشأت الجامعة –بمعونة حكومة الولاية – معهدًا لتدريس الطب اليوناني والجراحة، وكانت الجامعة تحاول إقامة كلية للطب الحديث، فتحققت هذه الأمنية في عام ١٩٦٢، وأصبح قسم الطب في الجامعة متكاملًا بمستشفياته وصيدلياته ومبانيه.

ولم تكن بالجامعة كلية خاصة للبنات، فتحولت مدرسة البنات الملحقة بالجامعة إلى كلية تؤهل لدرجات الليسانس، أما الماجستير والدكتوراه فتدرسها البنات في الجامعة مع زملائهن من الطلاب. وللطالبات مدينة جامعية منفصلة تسكنها الطالبات مراعاة لأصول الإسلام وتعاليمه ولوائح الجامعة، مع التزام الحجاب المشروع وعدم الاختلاط بالطلبة إلا في قاعات المحاضرات، وفي المناسبات الرسمية.